

النقد في الفكر الفلسفي الحديث.

ريم منصور

جامعة المنستير تونس المعهد العالي للدراسات التطبيقية في الإنسانيات المهدية تونس.

rim.mansour86@gmail.com

الملخص:

ارتأيت من خلال هذه الورقة البحثية إلى تبيان مميزات الفكر النقدي وتمظهراته في المشروع الحديث بوصفه نحلة عقلانية تسهم في تحرير الإنسانية من حالة القصور الفكري أو الظلام الشامل نحو الأنوار التي تجعل من الإنسان سيذا على نفسه وعلى الطبيعة (الأشياء)، كما توصلنا في هذا المقال إلى استنباط وجود علاقة تعاضد بين فعل النقد وبراديجم الحداثة الذي يستمد وجوده من هذا الفعل العقلاني الذي يضع كل ما هو متواجد أمام المسائلة الفكرية المتجاوزة للحقائق المطلقة والمعارف المغلقة والثابتة، بيد أن النقد الحديث قد شهد بدوره نقداً آخراً متأتماً من داخل الفكر الفلسفي نفسه، حيث تمكن من كشف مضمراته الخفية واستنطاق معالمه الصامتة ومكبواته النفسية، وفي هذا السياق برزت محاولات مقوّضة لمفهوم النقد الحديث ونذكر من بينها المحاولة النيثية، الفوكوية والدريدية.

الكلمات المفتاحية: النقد، الحداثة، النقد المعرفي السياسي والأخلاقي النقد المعاصر، المنهج الجنيلوجي، الأركيولوجي والتفكيكي.

Abstract:

In this research paper we have seen specify the characteristics of critical thinking and its manifestations in the modern project as a rational bee that contributes to the liberation of humanity from the state of intellectual disability or total darkness towards the lights which make man master of himself and of nature (of things). For our part, we have managed in this article to deduce that there is an integral relationship between the act of criticism and the paradigm of modernity which derives its existence from this rational act which puts everything that exists in the face of the intellectual questioning which goes beyond absolute truths and closed and fixed knowledge. But in this context we have seen that there are contemporary philosophical attempts that go beyond the modern critical notion and discover its repressed and silent landmarks including Nietzschean, Foucauldian and Derridian attempts.

Key words:

Critique, modernity, political and ethical epistemological critique, contemporary critique, genealogical approach, archeology and deconstruction.

المقدمة

يعدّ النّقد سمة الفلسفة الجوهرية لأنّه يوقظ العقل البشري من الدعاوي الباطلة والآراء المزيفة التي تكون أشد رسوخا كلّما كانت منتشرة بصفة مطلقة بوصفها مجموعة حقائق بديهية لا تقبل إبداء الرأي فيها ومسائلها مساءلة فلسفية تقنيديّة مبرزة أهم الأوهام والأخطاء التي قد يرتكبها الفكر الفلسفي الذي يدعي تملكه للحقائق.

لا يمكن كشف الأخطاء إلاّ عن طريق المناقشة والحوار المؤدبين إلى النقد الذي يقتضي فحص كلّ ماهو مألوف ومسائلة ماهو سائد، وفي هذا السياق نرى أنّ "سقراط" كان يتعمد الاسترسال في الحوار لكي يظهر مخاتلات وأخطاء محاوريه الذين يتقنون ثقة مطلقة في معارفهم التي لا تقبل الشك ويجبرهم مقابل ذلك على ضرورة الاعتراف بجهلهم وهذا من منطلق اعتقاده أنّ الفيلسوف كلّ ما يعرفه أنّه لا يعرف شيئا.

إنّ المواقف التي تعتقد أنّ الفيلسوف الذي يميل إلى الهدم والتحطيم هو فيلسوف ربيبي لا يستطيع الاعتراف بوجود حقائق نهائية، بيد أنّ فعل تحطيم الاعتقادات أو الأوهام الراسخة يمثل لحظة هامة وأساسية في الفلسفة التي تخترق البدايات الكاذبة وتفضح الجهل المتمسّتر بالغرور وادعاء المعارف.¹

تبدو أنّ فكرة إقتلاع القناعات والأفكار الراسخة بمثابة الحتمية الجوهرية لفعل الفلسفة الذي إنبنى على نقد المعارف المطلقة وإبراز عيوبها وأوهامها الحقيقية، لذلك لا يكون التفكير الفلسفي إلاّ نقديا بالأساس ولا يستقيم أمره إلاّ إذا تمكن فيلسوف معين من إجراء نقد شامل لجميع المعارف المعطاة كي يتوصل إلى صياغة نظرة خاصة بالإنسان والعالم.²

ولكن من زاوية أخرى يبدو أنّ النقد يمثل خاصية أساسية أو جوهرية للفكر التنويري الحدائي، حيث شهد أوجه قوته في القرنين السابع عشر والثامن عشر وخصوصا مع "كانط" مؤسس الفلسفة النقدية الحديثة الذي ساعد الفكر الفلسفي على توظيف هذه الفلسفة لمواجهة مشاكل الإنسان الحديث والمعاصر.

لقد اشتغلت الفلسفة التنويرية على إخراج الإنسان من حالة القصور أو العجز التي لازمتها، وكان هذا الشعار بمثابة الغاية الأساسية لفلاسفتها وروادها الذين يعولون على تحرير الإنسان من سيطرة

¹ - محمد الجوّ، مسائل فلسفية، تونس: مركز النشر الجامعي، 2000، ص 13.

² - نفس المصدر، ص 13.

جميع أشكال العجز عن استعمال العقل مقابل التقيّد بمجموعة معارف مطلقة يتم تصديقها بصفة نهائية دون التفكير في نقائصها وحدودها.¹

تتجسد خطتنا البحثية في تحديد مفهومات متعلقة بالنقد والحادثة وتباين العلاقة القائمة بينهما، ثم إبراز تجليات النقد الحديث وأخيرا سوف نسعى إلى تباين مفارقات هذا المفهوم في الفلسفة المعاصرة أي نقد النقد الحديث.

مامعنى النقد؟ وماهي تجلياته في الفكر الحديث؟ وهل سيشهد النقد الحداثي نقداً آخر من داخل الفكر الفلسفي نفسه؟

1. الحداثة والنقد:

1) تعريف الحداثة وأهم خصائصها الجوهرية:

الحداثة لغة، تعني ما هو جديد ومتحول الذي يرتبط بسيرورة الأشياء وتحولها فهو يقطع مع الماضي مقابل فرض صورة جديدة ومعاكسة له . وإذا كان العقل الحداثي يريد تحرير الإنسان من هيمنة الماضي بجميع تجلياته الفكرية، الهوية، الدينية والقيمية، فإنه يعول حتماً من خلال قطّاعه مع ماضيه إلى إحداث تحولات كبرى على جميع المستويات، وفي هذا المعنى نستطيع القول إنّ الحداثة بوصفها وعي جديد يناقض القديم ويعارضه و حركة نهوض، تطوير وإبداع له غاية جوهرية تكمن في تغيير أنماط التفكير، العمل والسلوك²، ومن هذا المنطلق لا نستطيع التغافل عن دور المشروع الحديث والإيجابي الذي يتجسد في تحرير البشرية من الظلمات وسيطرة تعاليم الكنيسة والمعتقدات الأسطورية والخرافية نحو مجتمعات محدثة أصبحت تؤمن بأهمية العلوم ومنزلتها خصوصا في إحداث الثورات الهامة التي شهدتها أوروبا الحديثة ومن أهمها نذكر الثورة الصناعية حيث أصبحنا نتحدث عن بروز أنظمة رأسمالية متخطية للنظام الإقتصادي القديم والإقطاعي، وتشرع في نفس الوقت إلى تكوين نظام إقتصادي وبيروقراطي يشرع للمشروع الإقتصادي الحر المرتكز على تقسيم العمل حسب التخصصات.³

تتقوم الحداثة على فكرة التقدم العلمي المعروف باكتشاف التقنية، وهنا أصبحت الآلة هي السمة الأبرز في الغرب حيث تحولت علاقة الإنسان بالطبيعة إلى علاقة هيمنة، غزو وسيطرة، أي جعله مركزا للكون ومصدرا لجميع القيم، وبهذه النقلة النوعية تمكنت الحداثة بوصفها نحلة عقلانية من

¹ - إما نويل كانط، تأملات في التربية، ماهي الأنوار، ما التوجه في التفكير؟، تعريب وتعليق محمود بن جماعة، صفاقس: دار محمد علي الحامي، 2005، ص 86

² - إبراهيم الحيدري، ماهي الحداثة؟، موقع إيلاف، elaph. Com، يونيو 2009، ص 1.

³ - إبراهيم الحيدري، ماهي الحداثة، موقع إيلاف، elaph. Com، يونيو 2009، ص 1.

إحداث قطيعة مع التراث أو الماضي، بيد أن هذه القطيعة لا تعني هدمه ونبذه، بل إحتوائه لغاية إصلاحه وتجديده بصفة تكون أكثر عقلانية.¹

جاءت الحداثة لغاية تحرير الإنسان من جميع قوى الإستلاب أو الإغتراب التي تعيقه عن التطبيق الجيد والسليم لحريته في ممارسة إختياراته وتوظيف عقله وتحديد مصيره وتكوين تصوراتهِ للعالم.

تنزل الحداثة العقل منزلة المرجعية الأساسية وتضعه أصلا وأساسا للمعرفة، الوجود وجميع القيم، فهذه المنزلة الرفيعة للعقل تمكن في تحرير الإنسان من جميع القوى الغيبية والمتعالية التي تكبل حريته وتقيدها بفكرتي التقليد والثقل الخرافي.²

إنّ العقل الحداثي نور طبيعي، والحداثة وعي تنويري وفكر تحرري يعلى من قيمة العقل بوصفه أساس فعل الحس النقدي الذي يجعل من الذات المشرعة للمعرفة والمؤسسة الفعلية لجميع القيم سوى أكانت أخلاقية، سياسية وجمالية، وعلى هذا الأساس جاء الفكر الحديث من أجل تدجين عصر الأنوار الذي يؤمن بوجود بشارات جديدة وهي، الإعتقاد في وجود ذات تعتبر مقياس الأشياء وتعتبر عن كينونة الإنسان بوصفه ذات مفكرة وهنا نسترجع القول التالي لديكارت الذي يعبر فيه عن ماهية الذات الإنسانية: "ولست أعرف من خصال غير هذه تفيد في تدعيم الفكر: إذ بخصوص العقل أو الصواب، لا سيما وهو الشيء الذي يجعل منا بشرا، ويميزنا عن الحيوانات."³

إنّ العقل لدى "ديكارت" هو القاسم المشترك بين جميع البشر وهو الذي يعلي من قيمة الإنسان عن سائر الكائنات لأنّه الكائن الوحيد القادر على حسن استخدامه وتوظيفه في مختلف الجوانب الحياتية.

(2) مفهوم النقد وعلاقته بالوعي الفلسفي الحديث:

(أ) تعريف النقد: يعرف النقد لغويا بمعنى تمييز الدراهم وإخراج الزائف منها، فهذا التعريف قد يحمل في طياته معان متنوعة وجد هامة ومن بينها نذكر المعنى التالي: فحص الشيء وكشف عيوبه، أمّا اصطلاحا يعني تمحيص العمل الأدبي بشكل متكامل ومتناسق إثر الإنتهاء من كتابته، حيث يتم تقويم النص تقويما جيدا كي يتسنى للناقد إظهار مواطن القوة والرداءة فيه⁴، وإبراز أهميته الفكرية وقيّمته لغاية الحكم عليه بالإعتماد على المقياس أو معايير محددة.

¹ - نفس المقال ص 2.

² - محمد الشبكر، هايدغر وسؤال الحداثة، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2006، ص 17.

³ - ريناي ديكارت، حديث الطريقة، ترجمه وشرحه وقدم له عمر الشارني، تونس: دار المعرفة للنشر، 1987، ص 27.

⁴ - شرين أحمد، تعريف النقد، موضوع، mawdoo3.com، مارس، 2022، ص 1.

وتستعمل كلمة نقد فلسفياً في معجم "اللانند" بفحص مبدأ أو ظاهرة للحكم عليها حكماً تقويمياً أو تقديرياً، ولذلك يطلق مفهوم النقد على الفكر الذي لا يتوصل إلى حقيقة دون التساؤل عن مجموعة الحقائق أو المعارف المعطاة سوى من حيث المضمون أو الأسئلة، كما يمكن القول أيضاً إن الفعل النقدي يطلق إما على اعتراض وإما على استنباح يدور على دراسة إجمالية أو نقطة خاصة ترمي إلى فحص أو إدانة عمل ما.¹

يتضمن النقد دلالات مختلفة حسب المواقف التي تحاول صياغته أي هنالك من يرى أن النقد ذاته هو توجيه السهام نحو مواطن الضعف وأيضاً توجد مواقف أخرى تحاول استخدامه كبنية أساسية لتأسيس صرح فلسفي جديد شعاره التخلص أو التحرر من الأفكار المغلوطة.² إن لفظة النقد تحمل في سياقها معانٍ متعددة حسب المجالات التي قد تستخدم فيها، فهذا دليل قاطع على وجود أنواع متنوعة من النقد في الفلسفة نفسها، مثل النقد المعرفي، النقد الخلفي والسياسي، النقد الإستيطقي، النقد الفنونولوجي، النقد الجينولوجي والأركيلوجي، وقد تضيء هذه التنوعات المفهومية للنقد الفلسفي معضلة تحديده بكيفية دقيقة واضحة و جلية.

ومن جهة أخرى نلاحظ أن النقد رغم تنوع توجهاته واختلافها قد يكتسي دلالات مشتركة، وهي اكتشاف الأخطاء ومواطن الزلل والوهم في الخطابات الفكرية التي تقدم نفسها بوصفها مالكة لحقائق مطلقة والأنظمة الإجتماعية والسياسية التي تؤمن برسوخ المبادئ والقيم والعادات الموروثة.

(ب) النقد والحدثة: سوف ننطلق من تبيان علاقة الحدثة بمفهوم النقد من الأقوال الشهيرة لكانط: "تجرأ على أن تعرف، الكسل والجبن هما السببان في أن عدداً كبيراً جداً من الناس يفضلون البقاء قصراً طوال حياتهم، بعد أن حررتهم الطبيعة منذ أمد بعيد من أي توجيه خارجي".

نلاحظ من خلال هذه الاقتباسات النصية لصاحب الفلسفة النقدية أن تأخر الحضارات وتقدمها مرتبطين بمدى قدرة مجتمعاتها على تحرير أنفسها من جميع أشكال الوصاية التي تمنعها من الإستعمال الحر للعقل، وإذا قلنا حرية الفكر أو الجرأة على المعرفة، فهذا يعني أن الذات تمتلك في نفسها تلك الإرادة أو الشجاعة التي تحثها على فعل النقد الذي يرتبط بإمكانية التفكير الحر المتجاوز لجميع أشكال القصور، لذلك لا يتردد صاحب نص في جواب على "سؤال ماهي الأنوار" عن وصف أسباب القصور الناتجة عن عجز الإنسان عن استعمال عقله دون إرشاد الغير معتبراً أن المرء يكون مسؤولاً عن حالات القصور إذا لم يؤمن بقدراته في تحصيل المعارف دون التقيد بالحلول الجاهزة وفي هذا السياق نستطيع القول إن عصر التنوير هو حقبة تنتمي إلى براديجم

¹ - أندريه اللانند، موسوعة اللانند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، بيروت: منشورات عويدات، مجلد 1، 1966، ص ص 237_238.

² - حمدي أبو النور- حسن أبو النور، هابرماس، الأخلاق والتواصل، بيروت: دار التنوير، 2009، ص 20.

الحدثة لأنه مصطلح يشير إلى القرن الثامن عشر وغالبا يعد جزءا هاما من عصر سادت فيه العقلانية بمختلف تحلياتها وأشكالها.¹

إنّ الحدثة تشرع إلى عصر العقل وحسن توظيفه لإخراج البشر من القصور الناتج عن عجزهم عن استعمالهم لعقولهم دون التقيد بإرشادات الغير، وهنا يتضح لنا وجود علاقة تلازم بين مفهوم النقد بوصفه ممارسة عقلانية حرة تريد تريد التحرر من جميع أشكال الوصاية والتلقين والحدثة بوصفها أنطولوجيا الحاضر المتحررة من أسر العادات والتقاليد الأسطورية والخرافية، وتبعاً لذلك نجد في هذا الخطاب العقلاني عدة شعارات فلسفية تدعو إلى ممارسة الفعل النقدي باعتباره نزوع الإنسان إلى التفكير بنفسه وتمرده على من صنعوا تلك الأحكام المسبقة والمتوارثة عن الأسلاف.² يعدّ النقد سمة أساسية لبراديغم الحدثة الذي جعل منه من أهم الشعارات والمبادئ التي ينادي بها فلاسفة الحدثة وأرتقى به إلى مستوى المبدأ الأولى الذي يساعد الإنسان العاقل على التحرر من قيود الكسل والخوف والوصاية من أجل التسلح بشجاعة البحث الذاتي وواجبه، وهنا نستطيع القول إنّ النقد هو مؤشر على وجود عصر مستنير، لذلك ينبغي على العقل الناضج إدراك أنّ امتلاك المعارف لا يعتبر دليلاً على الخروج من حالة القصور لأن فعل امتلاكها لن يورثه إلاّ التبعية.³ إنّ العقل التنوير أو الحدثة هو عقل طاقي، حركي ووظيفي مثلما عبر عن ذلك صاحب كتاب نقد العقل المحض الذي راهن على التفلسف كسمة جوهرية للفلسفة بوصفها فعل عقلي يتجلى في النقد.⁴

II. تجليات النقد في المشروع الحديث:

للنقد الفلسفي في العصر الحديث عدة مدلولات نظراً لكثرة التوجهات الفلسفية التي إنشغلت به في هذه الحقبة التي تولى أهمية كبرى لقدرة الإنسان على تحرير نفسه من هيمنة الفكر الخرافي والأسطوري مقابل جراته على استعمال عقله دون حدود وهنا إتخذ معان متعددة ونذكر من بينها النقد السياسي - الخلقى والمعرفي.⁵

1) نقد الاستبداد السياسي في الفكر الحديث:

¹ - إما نوبل كانط، تأملات في التربية ماهي الأنوار؟، ماالتوجه في التفكير، تعريب وتعليق محمود بن جماعة، صفاقس: دار محمد على الحامي، 2005، ص 58.

² - إما نوبل كانط، تأملات في التربية ماهي الأنوار؟ ماالتوجه في التفكير؟ صفاقس دار محمد على الحامي، 2005 ص 87.

³ - محسن الخوني، التنوير والنقد منزلة كانط في مدرسة فرانكفورت، اللانقية: دار الحوار والنشر والتوزيع، 2006 ص 146.

⁴ - نفس المرجع، ص 146.

⁵ - نفس المرجع، ص 147.

لقد حاولت الفلسفة السياسية الحديثة مراجعة العديد من المرجعيات الفلسفية التي تشرع للحكم المطلق ونذكر هنا فلسفتي "مكيافلي وهوبز"، رغم إحدائهما قطيعة جذرية مع الحكم الثيوقراطي الذي يخضع إلى هيمنته الكنيسة، إلا أنّهما وقعتا في مشكل يكمن في فرض الاستبداد والحكم الكلي لسلطة الفرد الواحد على سائر الأفراد المحكومين ومن هنا نشأت فلسفات ترفض فكرة الاستبداد وتنقدها نقدا شديدا ونذكر من أهم روادها "جون لوك" "روسو" و"مونتسكيو" الذين عارضوا هذه التصورات التي تقيد حرية الإنسان وتجعله خاضعا لسلطة الملك أو الأمير، أو الحاكم الواحد.

جاءت الحداثة السياسية من أجل نقد فكرة الاستبداد السياسي السائد في تلك الفترة وقد إنطلقت أولى تجلياتها مع "لا بوتيه" حيث كان نصه الفلسفي السياسي رد فعل أو نقد مباشر لكتاب "مكيافلي" المسمى بالأمير¹، ومدركا أنّ هذا الكتاب جاء لتمجيد الاستبداد والتشريع له، في حين يرمز كتاب خطاب العبودية الإرادية إلى دور الحرية في مواجهة جميع أشكال الاستبداد والخضوع، لكن هذا الفيلسوف لم يتطرق ولم يربط في نقده لظاهرة الاستبداد بمفاهيم القوة، السيطرة، العنف بوصفها مبدأ الهيمنة وفرض السلطة المطلقة، بل ركز فقط على الدوافع المؤدية إليها وهي ضعف الطبيعة البشرية التي تقبل الخشوع والاستسلام.²

إنّ القوة والظلم السياسي لا يبرزان نفسيهما من خلال فرض نفوذهما وهيمنتها بل يستمدان قوتها من داخل ضعف البشر وجبنهم وعجزهم عن تحرير ذواتهم من طغيان المستبدين وجبروتهم.³ ونتيجة لذلك نستطيع الإقرار بأن الاستبداد ناتج هنا عن ضعف الطبيعة البشرية التي تقبل بالعبودية الإرادية لسيد حاكم يسلبهم حريتهم واستقلاليتهم.

إنّ المستبد لدى "لبوتيه" ليس سيّدا، غير أنّه يستمد جبروته وسلطانه ممن جعلوه مستبدا وهذا يعني أنّ الشعب هو المسؤول الوحيد عن هذه العبودية وعن هذا التنازل الإرادي لسلطان الحاكم وقهره وإسعاده فهكذا ينجح المستبد في إستبعاد الرعايا حيث يحرص على المبالغة في توظيف جبروته بمجموعة من القوانين والرموز القهرية التي تطلب من المحكومين الطاعة، الخضوع والعمل دائما من أجل خدمة الحاكم المستبد والمهيمن بواسطة تحقيق مصالحه وحاجياته الخاصة،⁴ وهنا أتت الحداثة السياسية لتتنقد الأنظمة المطلقة التي تستعبد مدركة أن الطبيعة زودت الإنسان بمجموعة من الملكات من بينها الحرية والعقل، لذلك عوّل جميع روادها على ضرورة الدفاع عنهما وإعتبارهما

¹ - عبد الحق منصف، نقد فكرة الاستبداد في العقل السياسي الحديث، الفكر العربي المعاصر، بيروت: مركز الإنماء القومي، العدد 145-144، 2008، ص 42.

² - نفس المقال، ص 42.

³ - نفس المقال، ص 42.

⁴ - عبد الحق منصف، نقد فكرة الاستبداد في العقل السياسي الحديث، مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت: مركز الإنماء القومي، العدد 145-144، 2006، ص 43.

حقاً مدنيا لا يمكن تخطيه وخرقه وقمعه، فهذا هو إذن لبّ النقد السياسي الحديث للاستبداد والأنظمة الثيولوجية المطلقة التي تستعبد الإنسان وتسلب حرياته الأساسية، والذي خلق في الوقت نفسه للحادثة السياسية طرق نقدها للأنظمة الفردية والشمولية، حيث سمحت لفلاسفة العقد الاجتماعي أمثال "روسو" - "لوك" - و"سبينوزا" بإقامة علاقة ترابط وتكامل بين مفهومي الدولة والحرية، لأنّ الدولة نفسها تعد نظاما للحرية، فما هية السياسي تكمن في الحفاظ على الحرية وعدم المساس بها وبهذا المعنى لا تكون السلطة السياسية هي الفعل الذي يولّد الحرية فحسب، بل الحرية نفسها هي القاعدة التي تتبني وتُنظّم بواسطتها الدّول¹. تُوجد المجتمعات في الفلسفات التعاقدية الحديثة عن طريق إتفاق عام يتنازل فيه الأفراد عن وضعهم في الحالة الطبيعية التي تتسم بالفوضى والتنافس، الخوف من الفناء لفائدة الإرادة العامة التي تعد أساس ظهور الدولة الحديثة التي تسعى إلى تنظيم حياتهم وفق أوامر العقل بعيدا عن منطق الانفعالات والفوضى في حالة ما قبل الدولة: "وإذن فقد كان لزاما عليهم أن يتفقوا فيما بينهم عن طريق تنظيم وتعاهد حاسم على إخضاع كل شي لتوجيهات العقل وحده."²

تختص الدولة الحديثة بتحقيق مهمتها الأساسية التي تبرز في ضرورة ضمان حقوق المواطنين وتحريرهم من جميع أشكال الاستعباد وكذلك المحافظة على حياتهم وحمايتهم من المخاطر التي تهدد وجودهم سواء أكانت من الداخل أو الخارج.³

تعتبر السياسة موضوع تفكير أساسي من قبل الفلاسفة المحدثين الذين إنتقدوا الأنظمة القمعية التي تفرض الحصار على الحقوق الأساسية والحريات العامة، وأكدوا في المقابل على أنّ مهمة السلطة السياسية تتمثل في تنظيم المجتمع المدني بواسطة مبادئ العقل وسعي أصحابها في المقابل إلى تحقيق الخير لكافة أفراد المجموعة، غير أن هذه الغاية لن تتحقق إلا إذا كان الحكم بين أيدي الجميع (جماعيا).⁴

يشرع فلاسفة العقد الاجتماعي ومنظري الأنظمة الديمقراطية من خلال تقديمهم لنظرية الحكم الثيولوجي والأنظمة المطلقة والشمولية، إلى وجود الدولة الديمقراطية التي تختص بتنظيم المجتمعات عن طريق مجموعة من القوانين التي تستمد مكانتها وشرعيتها بواسطة إقرارها بقيمة

¹ - نفس المقال، ص 44

² - باروخ سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسية، ترجمة وتقديم حسن حنفي، مراجعة فؤاد زكرياء، بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 2005، ص 370

³ - Eric weil, *philosophie politique*, paris : vrin, 1996, p 140.

⁴ - *ibid* p 140

ومكانة المواطن لان بقائها واستمراريتها مرتتهان بمواقف وآراء الشعوب تجاهها ،ومن هذا المنطلق نستطيع الإقرار بأن الدولة الحديثة تمثل الجهاز الرسمي والضامن لاستمرارية المجتمعات وحفظ بقائها مثلما عبر عن ذلك إريك وايل في كتابه الفلسفة السياسية.

إن ما يضمن استمرارية الدولة وبقائها هو خدمتها لشعبها وحسن تدبيرها لحياة الأفراد داخل رقعة جغرافية معينة إلى جانب تجنبها الإفراط في ممارسة السلطة التي تخضع لضغط الرأي العام.¹ ومن جهة أخرى تبيننا من خلال طرح دلالة النقد السياسي الحديث لمقولة الاستبداد أن الغاية الأساسية من هذا النقد تكمن في تحرير الإنسان من جميع أشكال الاستعباد، القمع، الاستيلاء والخضوع مقابل حثه على

الممارسة الفعلية لحرياته الفردية في مجالي التفكير أوالتعبير الذي لن يظر إطلاقا بسيادة الدولة.²

2) النقد المعرفي في الفكر الفلسفي الحديث.

تقوم المشروع الفلسفي الحديث على فكرة النقد التي تُعتبر بمثابة الأساس الجوهرية لرواده خصوصا في القرن الثامن عشر وهنا قد يتعذر علينا القول إنّ غاية النقد الفلسفي الحديث تظهر في تحطيم الميتافيزيقا والسعي إلى حذفها والإعلان عن موتها، لأنّ غايتها تتجسد في إبراز حدود العقل الميتافيزيقي المبالغ في دغمائيته قصد إصلاحه، لذلك لا يمكن للعقل معرفة الأشياء في ذاتها، أي أشياء تتجاوز كليا قدرته، وفي هذا المعنى يقول كانط: "للعقل البشري في نوع من معارفه، هذا القدر الخاص أن يكون مرهقا بأسئلة لا يمكن ردها، لأنها مفروضة عليه بطبيعة العقل نفسه، ولا يمكنه أيضا أن يجيب عنها، لأنها تتخطى كليا قدرة العقل البشري".³

إن النقد الكانطي للفلسفة وخصوصا التوجهات المعرفية الدغمائية، قد أحدث ما يمكن تسميته بمفهوم الثورة الكوبرنيكية في مجال الفكر الغربي لأنه قد أقام تلك المحكمة للعقل البشري ولجميع التصورات المعرفية الكبرى التي تريد أن تستعمل مجموعة مبادئ عقلية تتخطى حدود التجربة.

لقد سلك العقل المعرفي جميع الطرق التي مكنته من عدم مراجعة نفسه والانعكاس فيها لكشف حدوده واستعمالاته الغير مشروعة للأفكار، ومبالغته في ايمانه بقدرته اللامحدودة في معرفة الأشياء في ذاتها والمتعالية عن حدود التجربة ورغبته الجامحة في المعرفة.⁴

¹ - *ibid*, p149

² - فاطمة حداد- الشامخ، الفلسفة النسقية ونسق الفلسفة السياسية عند فسينوزا، تلمجة جلال سعيد، تونس: المركز الوطني للترجمة، 2008، ص 268.

³ - عمّا نوثيل كنت، نقد العقل المحض، ترجمة موسى وهبة، بيروت: مركز الانماء القومي، 1989، ص 25.

⁴ - نفس المصدر، ص 27.

أسس "كانط" تصورا جديدا للفلسفة حيث أدخل عليها مفهوم النقد الذي حاول صياغته بطريقة مخالفة لتلك التصورات الفلسفية النسقية التي تحبذ اعتماد الأسلوب الدغمائي للعقل المحض دون نقد مسبق لقدراته الخاصة، لذلك عوّل هذا الفيلسوف على تأسيس نسق فلسفي نقدي معارض للفلسفات الوثوقية معتبرا أن النقد الفلسفي هو الممهد الضروري لتأسيس الميتافيزيقا كعلم.

يسعى "كانط" من خلال المنهج النقدي إلى تأسيس تصور جديد لنسق فلسفي معارض للأنساق المعرفية الوثوقية، وعلى هذا الأساس يحتاج هذا المنهج إلى مجموعة من الأسس الواضحة والدقيقة حيث يستمد قوته من خلال قدرته على الإجابة عن السؤال التالي: ماهي شروط المعرفة النسقية؟¹

إن المنهج الذي يمكننا من الإجابة عن هذا السؤال أي كيف تكون المعرفة النسقية ممكنة هو النقد، غير أنه ينبغي أن نشير في هذا السياق إلى أن كانط لا يقصد به نقد الكتب والأنساق، بل نقد لقدرة العقل والنظر إلى حدوده وأخطائه.²

إنّ المنهج هو تلك الطريقة التي تمكننا من الإجابة عن السؤال المتعلق بشروط إمكان المعرفة الماقبلية، وتأسيس نظرية المنهج المتعالية التي يستطيع من خلالها العقل تأسيس العقل المعرفي، العملي والجمالي.

تحتاج الفلسفة النقدية لدى كانط إلى علم يحدد إمكان المعارف القبالية، وفي هذه النقطة إنقذ صاحب كتاب العقل المحض التصورات الدغمائية التي تعتبر أنّ المعارف قد تخرج عن حقل التجارب الحسية أي أنها تتخطى جميع حدود الحقل التجريبي بواسطة مفاهيم لا يتناسب معها أي موضوع قد يُعطى في التجربة ذاتها.³

لا يساير كانط الفلاسفة الذين يعتبرون أنّ الميتافيزيقا تعمل على إنتاج حقائق تتجاوز التجربة وبناء على ذلك قام هذا الفيلسوف بنوع من التشريح للفعل المعرفي لغاية الكشف عن الملكات المتواجدة لدى الذات البشرية ونذكر من بينها الحساسية، الفاهمة، الفكر. إنّ الحساسية والفاهمة ملكتان متعلقتان بالاستطيقا المتعالية والفكر الخاص بموضوع الديالكتيك ومن خلال هذا التمييز حاول كانط أن يحدث ما يمكن أن نسميه بالثورة الكوبرنيكية في ما يتعلق بتصوره للفلسفة الذي لم يعد نسقا كليا يريد بلوغ الحقائق المطلقة التي تتخطى عالم المادة، بل أصبح الأمر هنا متعلقا بالبحث عن المنهج المناسب الذي يساعد العقل على إعادة النظر في إمكانيته وإبراز حدوده، وهذا يثبت لنا

¹ - Daniel Parrochia, *la raison systématique*, Paris : vrin, 1993, p117.

² - عمّانويل كُنت، *نقد العقل المحض*، ترجمة موسى وهبة، بيروت: مركز الانماء القومي، 1989، ص 54.

³ - نفس المصدر، ص 47.

أن الفلسفة الكانطية هي فلسفة نقدية بإمتياز تهدف إلى الغوص في عمق الملكة التي يسميها بالفاهمة لكي تبرز لنا شروط وقواعد استعمالها، ويبدو أن هذا المبتغى لن يتحقق إلا إذا نجحنا في تغيير طريقة التفكير ومعرفة قدرة العقل على تزويد الفاهمة بمجموعة من الأفكار والمفاهيم التي يمكن تطبيقها في الواقع التجريبي بهدف تنظيم شتات العالم الحسي، شرط أن لا تتجاوز هذه المعرفة الماقبلية حدود التجربة الممكنة، أي أنها لا تطبق إلا على الظواهرات، ومن هذا المنطلق نستطيع القول إن كانط يهدف إلى تأسيس دلالة جديدة للفلسفة بوصفها فلسفة نقدية لغاية إصلاح الميتافيزيقا التي تتعالى عن موضوعات التجربة وعن متنوع العالم الحسي وبالتالي إن المعرفة الحسية هي المعرفة الممكنة لأن العقل البشري لن يدرك غيرها.¹

إن الفلسفة الكانطية النقدية أعادت الإعتبار إلى الواقع الموضوعي إثر نقدها للفلسفات المتعالية والوثوقية التي تؤمن بقدرة العقل على معرفة الشيء في ذاته، حيث افترضت في المقابل وجود مهام أفضل للفلسفة نفسها تخول لها تنظيم الموضوعات وفقا لمعرفتها الخاصة.²

يدفع اللامشروط العقلي الذهن البشري إلى تخطي حدود التجربة وهذا التخطي قد يرهقه كثيرا لأنه يتجاوز قدرته وحدوده الممكنة، فهو مطالب بتنظيم متنوع العالم الحسي بواسطة المفاهيم المنتمية إلى الفاهمة.

يمكن الحديث عن وجود نوعيين من النظام في النسق الكانطي، أولا نظام متعلق بالأشياء الحسية، فلا يمكن أن يتحقق إلا بواسطة المقولات والمفاهيم المنتمية إلى الفاهمة ذاتها، أما النظام الثاني هو نظام المفاهيم الذي يخترعه العقل أو الفكر في الفاهمة وهنا تتمكن الفكرة من تحقيق الترابط الحاصل بين مفاهيم متنوعة في الفاهمة نفسها حيث تمكنها من تنظيم متنوع الواقع الحسي بواسطة المفاهيم المحضة التي تختص بمهمة توحيد المعارف غير المنتظمة والمتنوعة.

تتمكن الفاهمة من تنظيم الأشياء الحسية بواسطة مفاهيمها وهي في الوقت نفسه تخضع لنظام العقل المحض الذي يكون في صلة مباشرة بمفاهيم الفاهمة المحضة.

تسعى الفلسفة الكانطية النقدية إلى التآليف بين الماقبلي والمابيدي، فهذا التآليف كان نتاج تلك القراءة الكانطية النقدية للتصورات الفلسفية المغلقة والمتعالية والوثوقية التي تصرح بقدرة العقل اللامحدودة في معرفة الشيء في ذاته وكذلك نقدها للتصورات التجريبية الربيبية التي تعتبر أن المعرفة لا يمكن أن تكون إلا حسيّة وكل ما عداها وهم أي أنّ التصور الامبريقي كان ينكر وجود

¹ A. De coninck, *L'analytique transcendantale de kant*, Paris : Béatrice – Nauwelaerts, - 1955, p35.

² *ibid*, pp(31-30) - 2

الأشياء في ذاتها مدركا أنّ المعرفة الحقة تتأتى أو تتبع من العالم الحسي ومصدرها ناتج عن عالم الحواس، لذلك حاول صاحب كتاب نقد العقل المحض تبيان حدود هذين التصورين ليؤسس بواسطتهما فلسفته المتعالية والمتألّفة من عنصرين هما الماقلي والمابدي.

3- النقد الخلفي في الفكر الفلسفي الحديث.

تهدف الأخلاق إلى تنظيم السلوك الإنساني بواسطة مجموعة القواعد الصارمة، حيث تزود الإنسان العاقل بوصه ذاتا حرة بمجموعة من القوانين الكلية، الذاتية والصورية التي تتبع من العقل لغاية التمييز بين ماهو خير وماهو شر، لذلك تسعى الفلسفات الخلفية إلى تجاوز الأخلاق المعطاة التي تكون مسقطة على الإنسان حيث تجبره على الإسياق إلى سلطانها وأوامرها القسرية.

يعتبر إمانويل كانط من أهم الفلاسفة المحدثين الذين إنقذوا الأخلاق الإلزامية التي تتأتى من سلطة توجد خارج الذات البشرية وهذا يعني أنّ هذا الفيلسوف ينتقد الأصل الديني للأخلاق لأنه لا يعتمد على أسس واضحة فقط يحتاج إلى مجموعة من الإملات المفروضة على الإنسان.¹

أسست الفلسفة الأخلاقية لعلاقة تلازم بين الأخلاق و الحرية ويعود هذا المكسب إلى إكتشاف الكوجيطو الذي جعل من الذات المفكرة المشرعة الوحيدة لجميع قيمها ومبادئها دون العودة إلى أية سلطة تتعالى عنها، وهنا نستطيع الإقرار مع صاحب كتاب "أسس ميتافيزيقا الأخلاق" أنّ الحرية ميزة أو خاصية جوهرية لجميع الكائنات العاقلة،² التي لا يمكن أن تخضع إلى أي شيء يكون خارج سلطتها، لأنّها تحتوي في ذاتها على القانون الخلفي التي تشرعه لذاتها.

إنّ القانون الأخلاقي نابع عن الذات التي تؤسس بدورها لمشروعية الأفعال التي تكون متوافقة مع مفهوم الواجب الخلفي الذي يمثل القانون الجوهري للفعل الإنساني المتحرر من أسر المصلحة النابعة عن الشهوات، وبناء على ذلك يكون الفعل الخلفي ناتج عن الإرادة الخيرة.³

يتضمن القانون الأخلاقي بعدا معياريا موجهها إلى جميع الكائنات العاقلة التي لا تستحق إي إكراه يلزمها بفعل الأشياء تكون مفروضة من الخارج، لأنها مشرعة فعلية لأفعالها التي تجعلها تؤتي الفعل وفق الأمر القطعي الناتج بدوره عن الضرورة العقلية، وفي هذا السياق ربط "كانط" مفهوم الحرية بقدرة الذات على تحقيق فكرة التوافق التي يفرضها القانون الأخلاقي الذي يحاول التحكم في الميولات أو الإنفعالات المقيدة لحرية الإنسان الأخلاقي وهنا نستنتج أنّ الحرية في الفلسفة الخلفية

¹ - محمد خليفة عفان، ماذا أضاف إيمانويل كانط للفلسفة الحديثة، موقع الفري نات، 11/1/2019، ص1.

² - إيمانويل كانط، أسس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، بيروت: دار النهضة العربية، 1969،

ص ص (162-163).

³ - نفس المصدر، ص 67.

الحديثة تمثل مبدأ القانون الأخلاقي.¹ إنَّ عصر الحداثة هو عصر النقد، كما أكد على ذلك "كانط" الذي صاغ تصورا مميزا له، فقد أسس هذا الفيلسوف هوية نسقه الفلسفي بوصفه نسق نقدي يرتكز على إبراز حدود العقل الإنساني وإصلاحه وتحرره من أسر الحقائق المعطاة والأوامر الإلزامية.

لا شك أنَّ مفهوم النقد الحديث يمثل لحظة جوهرية ومحورية في تاريخ الفلسفة التي تفرض علينا الالتزام بعدم تجاوزها لأنها مهدت إلى بروز الفكر الفلسفي المعاصر الذي حاول أيضا تأسيس تصور جديد ومخالف للمشروع الحديث وهذا يعني أنَّ الدلالة الفلسفية للنقد تكون وثيقة الصلة بالسياقات النظرية التي يتنزل ضمنها وأنَّ البحث الفلسفي عن هذا المفهوم يكشف عن معان جديدة له.

نقد النقد الحديث (النقد المعاصر).

1) النقد الجينالوجي:

يبدو أنَّ الخطاب الفلسفي الحديث الذي كان موضع تمجيد من قبل منظري القرن الثامن عشر والمؤسس لمفاهيم الذات، النقد، العقل والحرية مخاتل قد وقع في ثغرات أسهمت في بروز مسائلة نقدية حول مشروعيته وحدوده.

أتت المحولات الفلسفية المعاصرة لخلخلة الصروح الميتافيزيقية اللاهوتية للمدرسة النقدية الحديثة التي أمعن في إذلال نفسها عندما اعتقدت أنَّ النقد هو الأداة أو المنهج الذي ساعد الإنسان الحديث على كسب حريته وتحقيق إنسانية وفي هذا السياق، نستطيع القول إنَّ النقد الجينالوجي يعدّ بمثابة اللحظة الأولى التي أعلنت عن نهاية النصوص الكبرى التي لازالت متشبثة بفكرتي الكلّي والأزلي.

جعل "نيتشه" من مفهوم "الجينالوجيا" ألية النقد المعاصر للفلسفات التي تدّعي بكونها قد أحدثت تلك الثورة الكوبرنيكية الهامة في مجال النقد الفلسفي الحق، غير أنَّها لم تسهم إلا في رفع شعارات أعتمدت لخداع الإنسان الحديث.

إنَّ الأسباب التي أدت إلى إكتشاف المنهج الجينالوجي و ظهوره في القرن التاسع عشر هي استكمال العدمية لقوام وجودها في الحضارة الغربية التي أصبحت مجرد فراغ أو خواء لأنها أفقدت الإنسان قيمته حيث أصبح يشعر بفقدان المعنى وعدم جدوى قيمة القيم التي أسسها المشروع العقلاني التنويري.

¹ - نفس المصدر، ص 175.

ثمة عدّة إخراجات فلسفية تجعلنا نطرح مجموعة من الإشكالات ومن بينها نذكر: لماذا أسس صاحب كتاب "جنياولوجيا الأخلاق" تصورا جديدا لدلالة النقد بعد أن تمكن إمانويل كائط من إحداث ما يمكن تسميته بالثورة الكورنيكية في هذا المنهج الذي تمكن بواسطته من رسم حدود مجالات العقل وشروط استعماله؟

تظهر أهمية الفلسفة النيتشوية في كشف ألقعة الخطابات التي تدعي بأنّها تمتلك اليقين المطلق، دون التفكير في ماتخفيه من أوهام و مخاتلات كبرى، لذلك يكون المنهج الجنياولوجي بمثابة الأداة التي مكنت فيلسوف المطرقة من شن حرب شاملة ضد جميع القيم و المناهج التي كانت تمتدحها الحداثة التي أسهمت في خداع البشرية وبلوغ مرحلة الإنحطاط المؤدية إلى ظهور العدمية، وبناء على ذلك نستطيع الإقرار بأن "نيتشه" يمثل تلك اللحظة الحاسمة في تاريخ الفلسفة المعاصرة القادرة على إبراز ماهو مسكوت عنه في ثنايا الخطابات التي تحاول إقناع نفسها بتحقيق إنتصارات عميقة على مستوى المنهج و دوره في بلوغ التقدم، بيد أنّ الغاية الأساسية من ظهور الجنياولوجيا تظهر في نفخ الغبار في ماهو مطمور ومسكوت عنه في عمق الظواهر.¹

تبدو أنّ الغاية الأساسية من اكتشاف "نيتشه" لمفهوم الجنياولوجيا، تحرير الثقافة الحديثة من هيئته قوى الإنحطاط والعدمية، لذلك تستوجب هذه الغاية وجود إستراتيجية وطريقة تكشف لنا ثغرات الخطاب العقلاني الحديث الذي يدعي بكونه أسس منهجا مكنّه من القيام بمحكمة للعقل، لكن يبدو أن هذا الخطاب لم يدرك أوهامه وأخطائه الكبرى لأنه لم يؤسس منهجا يكشف ماهو مسكوت عنه مما بقي معلقا بمجموعة أحكام ومخاوف أخلاقية تجعله يفقد الجرأة أو الشجاعة التي تحفز على سبر الأغوار.²

وقد صاغ صاحب كتاب جنياولوجيا الأخلاق مشكل الجنياولوجيا في مجموعة الأسئلة وهي ماهو مصدر أحكامنا المسبقة في الأخلاق؟، ثم تساءل عن أصل الخير والشر في الواقع الإنساني وأخير طرح أسئلة حول الظروف التي حولت للإنسان إختراع مفهومي الخير والشر، وماهي قيمتها؟³

تضع الجنياولوجيا نفسها كموضوع التساءل من الأصل الذي تنحدر منه القيم، وهي مشتقة في اللغة من كلمتين Gènes، تعني الأصل و logos يعني العلم، والمقصود بذلك علم الأصول وفي اللغة الألمانية تسمى herkunft، الأرومة، الأصل، النسب والإنحدار من عرق تتخرط منه طائفة من

¹ - Gianni Vattimo, *Nietzsche et la philosophie comme un exercice anthologique*,

Royaumont – Minuit, 1967, pp (204-205)

² - فريد ريش نيتشه، ما وراء الخير والشر، ترجمة فالور جزيلا حجارة، بيروت: دار الفرابي 2003، §§ 23، ص 49.

³ - فريد ريش نيتشه، جنياولوجيا الأخلاق، ترجمة فتحي المسكيني، تونس: المركز للترجمة، 2010، ص ص (32-34).

مستوى أرفع وأدنى¹ ووفقنا لذلك نلاحظ أنّ الجينياالوجيا تعني علم النسابة الذي يختص بمعرفة قيمة الأصل وأصل القيم في نفس الوقت كما عبّر عن ذلك جيل دولوز "تعني النسابة قيمة الأصل وأصل القيم في الوقت ذاته".²

إنّ المنهج الجينياالوجي هو توجه فلسفي إستراتيجي وظّفه فيلسوف المطرقة للبحث عن أصل القيم التي يمتدحها الفكر الحدائي الرافع لشعار النقد ودوره في تحقيق غاية التقدم، غير أن هذه المساءلة الجينياالوجية قد أفرزت العديد من الأوهام و الأخطاء التي وقع فيها رواد المدرسة النقدية الحديثة التي تدّعي بكونها نجحت في تحرير الإنسان الحديث من هميّة تعاليم الدين المسيحي ومن برائن الجهل أو القصور الفكرى، وهنا نستطيع التعرّف على الصراع النييتشوي العميق مع رواد الحدائة الذين يريدون إبقاء قيمهم خارج النقد الحق لأنّهم لا يكتفون إلاّ بوجود قيم معطاة، مقابل إنتقادهم للأشياء بواسطة القيم السائدة ولهذا السبب يسميهم نييتشه "بعمال الفلسفة" الذين يخادعون أنفسهم بإكتشاف مناهج نقدية غير قادرة على تجاوز السائد والمعطى في الآن ذاته، بل هي مناهج وظفت لخدمة تعاليم المثل الأعلى الزهدي الذي يشن الحرب ضد الحياة بواسطة القيم المعارضة لعالم المحايثة، الصيرورة والكثرات اللامتناهية ومن هذا المنطلق تمكن نييتشه من إكتشاف مفهوم جديد للفيلسوف الذي لن يكون إلاّ عالم نسابة يهتم بالعنصر التفاضلي للقيم أي أصل القيم (النبل، الخساسة أو الإنحطاط في الأصل).³

يمتلك نييتشه تلك الجرأة الفكرية أو النقدية التي مكنته من تحقيق الإنجاز العظيم للنقد وهو صنع الفلسفة بضربات مطرقة تكشف لنا أوهام أو مغالطات المناهج النقدية السابقة التي لم تطرح المشكل النقدي "بتعايير القيم" ويبدو أنّ النقد الجينياالوجي يستمد قيمته من إدخال مفهومي القيمة والمعنى لذلك دعى فيلسوف المطرقة و"بعيون دولوزية" إلى تجاوز "كانط" في عدّة نقاط هامة ونذكر من أوكدها، أنّ صاحب كتاب نقد العقل المحض جعل من العقل حاكما ومحكوما في الوقت نفسه، وإنطلاق النقد من جميع المبادئ الصورية المتعالية ولما قبلية لإنجاز مهمته التي تكمن في إضهار حدود العقل، والخطأ الهام بالنسبة إلى "نييتشه" يتجسد في جعل العقل قاضيا يودّ مراقبة توزع النفوذ والقيم السائدة عكس الجينياالوجي الذي يبشر بنقد حربي غير سلمي للقيم.

إنّ النقد الكانطي من وجهة نظر نييتشية هو نقد ارتكاسي وسلبي لأنه يحمي تلك القيم المتوارثة التي تساعد على شي الحرب ضد الحياة ونفيها في حين يحمل الجينياالوجي في نفسه تلك الإرادة

¹ - ميشيل فوكو، حنياالوجيا المعرفة، ترجمة أحمد السطاتي وعبد السلام بن عبد العالي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء: دار التونقال للنشر، 1994، ص 68.

² - جيل دولوز، نييتشه والفلسفة، بيروت المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 19 ص 7.

³ - نفس المصدر، 1993 ص 6.

المفعمة بالحياة حيث تهيء لقدم أو إستنابات إنسان راق متجاوز لجميع القيم الإرتكاسية التي تعيق إرادته.¹

يبدو أنّ المقصد من نقد "نيتشه" لكانط واضح وجلي، يتجلى في إرتداد كانط عن غاية التتوير التي تساعد الإنسان على التحرر من تخاريف الدين وظلمات الجهل مقابل تأييده للإيمان وحماية دروب الظلمية الخطيرة المتشبهة بالمسائل المتعالية والمفارقة،² لذلك نقول إنّ النقد الكانطي بالنسبة إلى فيلسوف المطرقة هو نقد متعال عن عالم الصبورة أو المحايثة المتسم بالكثرة المتشطية.

2) الأركيولوجيا لدى فوكو ونقدها للنقد الحديث:

ظهرت الأركيولوجيا لدى ميشيل فوكو كمنهج نقدي متوارث عن الفلسفة النيتشوية، لكي يبرز التمهصلات الخطابية وتعدد أشكالها وآليات إستغالها ضمن حقبات تاريخية متعددة ومتنوعة، فيبدو أنّ هذا المنهج لا يعني التكفل بوصف وتحديد الأنظمة الخطابية، فغاياته الجوهرية لا تكمن في الحكم أو التأويل.³

يهدف "ميشيل فوكو" من خلال منهجه الأركيولوجي إلى إختراق الفكر الغربي الذي تقوده إرادة المعرفة، المضاعفة بإرادة القوة، أي تلك التصورات التي تربط بين المعرفة والإرادة والتي تعرّف الفلسفة بأنها إرادة المعرفة،⁴ التي تنحو نحو الإرتباط بعالم المعرفة فقط. ولو عدنا إلى مصطلح الأركيولوجيا لدى صاحب كتاب "أركيولوجيا المعرفة"، لوجدنا أنّ هذا المصطلح لا يعني مجرد وصف لأحداث تاريخية مرت أمانا، لأن غايته لا تظهر في متابعة سيرورة الزمن وتدشين تحولاتها الخطية بل الحفر في باطنها ونفض الغبار عن ماهو مطمور وبمعنى أدق أنّ هذا المنهج لا ينشغل بإجتياز ماهو مائل أمانا لأنه ليس دراسة تهتم بوصف علوم مخادعة (علم النفس المرضي)، أو علوم في ذمة التاريخ والإيديولوجيا المغلقة.⁵

ما يثير إنتباهنا هنا هو إنتماء الفلسفة الفوكوية إلى الفلسفة النيتشوية التي إعتبرت أنّ غاية المنهج الجينيالوجي تكمن في كشف أعراض الوهن أو المرض الذي ساد في العصر الحديث والذي

¹ - جيل دولوز، نيتشه والفلسفة، ترجمة أسامة الحاج، بيروت المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، 1993 ص ص 120-121

² - نور الدين الشابي، نيتشه ونقد الحداثة، القبروان: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، دار المعرفة للنشر، 2005، ص 242.

³ - الزواوي يغورة، ميشيل فوكو في الفكر العربي المعاصر، محمد الجابري، محمد أركون، فتحى التركي، مطاع صفدي، بيروت: دار الطبيعة، 2001 ص 113.

⁴ - الزواوي يغورة، ميشيل فوكو في الفكر العربي المعاصر، محمد الجابري، محمد أركون، فتحى التركي، مطاع صفدي، بيروت: دار الطبيعة، 2001، ص 113.

⁵ - ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة سالم ياقوت، بيروت: المركز الثقافي العربي، 1987، ص 164.

اكتملت فيه العدمية وشهدت أوجه قوتها وانتشارها في الحضارة الغربية، وكذلك معرفة مكبوتات الأنساق الفلسفية التي تشرع لمجموعة حقائق أزلية وقيم مطلقة متعالية عن الإرادة الإنسانية، لذلك عول "فوكو" على الانشغال بهذا المنهج وطوره وجعله أركيولوجيا أو حفرية تؤد حصر جميع الخطابات وتضييق الخناق عليها لتحديد معالمها وكشف مضمراتها الخفية، وتعيين مبادئها ورسم ملامحها بكيفية جلية ودقيقة لغاية سبر أغوار ميادينها الفسيحة: "ثمة حصر وتضييق صامت هيمن على كل التحليلات الآتفة، دون أن يتم تعيين مبدئه أو رسم ملامحه بكيفية دقيقة وهذا

يعني أننا بعيدون عن أن نكون قد قمنا بل بسبر أغوار ميدان فسيح كميدان الخطاب.¹

يهتم المنهج الأركيولوجي بالبحث عن ما وراء الخطاب الظاهر الذي يقدم نفسه كمنظومة فكرية مغلقة ترفض كشف مكبوتاتها وقصدية الذات التي تمتلكها ومن هذا المنطلق نستطيع الإدراك بأن الأركيولوجيا الفوكوية تعول على استنطاق المعالم الصامتة أي تريد العثور على الكلام الأبكم أو الهامشي الذي يتم تحريكه بين السطور المكتوبة لأنها تعول على البحث عن ماذا كان يقال وراء ما قيل؟²

ارتسمت خصوصيات المنهج الأركيولوجي الذي لا يبحث عن إيجاد نقل مستمر لخطابات العلوم وما يحدث فيها من قطائع وتحولات جديدة، لأنه لا ينطلق من مجموعة قواعد يسعى من خلالها إلى إبراز خصوصية النسق بوصفه كل مغلق ونهائي، بل أنه يتضمن تحليلاً مغايراً لنمط الخطاب وصيغته³، فهذا يثبت لنا أن الأركيولوجيا لا تهتم إلا بالاختلاف، المغايرة، السلبية، اللاعقل، والانحراف، الإعوجاج وتاريخ المنبذين والمهمشين والضعفاء، فهذه المباحث المنسية حوّلت لها الحفر في الخطابات المتنوعة لنزع الغبار والأحوال عما تم إقصائه وكتبته وإخفاؤه بفسيفساء السلطة في مختلف تجلياتها سوى أكانت دينية، سياسية ومعرفية.⁴

نستكشف من خلال تطرقنا إلى مميزات المنهج الأركيولوجي لدى "فوكو" أن الفلسفة لديه، لا تهتم بتمجيد التحولات التي شهدتها التاريخ، بل أنها تتوخى إلقاء الضوء على التحولات، الإنزياحات، وكشف الخطابات المهمشة التي تم إقصائها وتركها منسية عكس فلاسفة النقد الحديث الذين يبذلون جميع إمكانياتهم وجهودهم من أجل التنظير إلى تحليل مفاهيم العقل وشروط ومجالات استعمالاته وتمجيد قيم التقدم، النهضة الفكرية والحدثة دون إعادة الاعتبار للفئات التي تعيش تحت الهيمنة، الجزر، المنع وسلب الحرية، فهكذا تبين لنا أن التاريخ لا يكتب إلا لفائدة الهامش عوض المستقيم،

¹- نفس المصدر، ص 164.

²- نفس المصدر، ص 27.

³- حسن المصدق، البيولوجيا السياسية بين سلطة المعرفة ومعرفة السلطة مفهوم الحقيقة عند فوكو، مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت مركز الإنماء القومي، عدد 144-145، 2008، ص 29.

⁴- نفس المقال، ص 29.

المعتوه والأحمق بدل العاقل، لأنه أراد تحرير نفسه من تلك الوحدة السردية المتناغمة للإنشغال بسبر أغوار النفس والنفوذ إلى عواملها الداخلية والمجهولة.¹

3) التفكير ونقد مركزية اللغوس (دريدا):

إنّ العمل التفكيكي يعدّ من أهم الإستراتيجيات الفلسفية المعاصرة التي ظهرت لتقويض مرتكزات الفكر الغربي المتمركز حول نفسه، وفي هذا السياق ينتمي "دريدا" إلى الجيل النيتشوي الذي جاء لدحض مقومات الفكر النسقي المغلق حول نفسه والمقصي للكثرات اللامتناهية، ومايثير انتباهنا هنا هل أنّ التفكير يحيل إلى الهدم وإعلان عن نهاية وموت الفكر الميتافيزيقي الغربي؟ لاشك في ذلك، إن دلالة التفكير، وكما عبر عن ذلك "جاك دريدا" في كتاب الإختلاف والكتابة تبدو معقدة جدا نظرا لتعدد المعاني التي تكتسبها مثال الهدم (démolition) عند "نيتشه"، عند "ليترية" "ولومار"، تفكيك أجزاء كلّ موحد وقطع آلة لنقلها من مكان إلى آخر وأبيات شعرية وجمل ما قبل مفهومية و مقصد ذلك في المعنى اللغوي أو النحوي فقدان الشيء بنيته إن التفكير هو حركة تهتم بضرورة حلّ، فك، ونزع رواسب البنيات مهما كانت نوعها كالبنى اللغوية والمركزية اللوغوسية والصوتية.²

كانت البنيوية قبل ظهور التفكيكية خاضعة إلى مجموعة نماذج مغلقة تعترف بتناسق الأفكار والأشكال والتركيبات، ولكن رغم إنتماء التفكير إلى الحركة البنيوية، فإنه يعول بصفة خاصة على معارضتها.³

ومن جهة أخرى نستطيع الإدراك بأنّ وظيفة المنهج التفكيكي تظهر في حل البنيات وفكها ونزع رواسبها، لكن هذا يعني أنه ليس تحليلا ونقدا مثلما هو شائع مع التراث الفلسفي الحديث.

لا يعني التفكير تحليلا أي أنه لا يختص بتجزئة المفاهيم والإشكالات الفلسفية إلى عناصر أساسية لغاية التعرف على مجموعة من القضايا المركبة والمعقدة، فهو لا ينطلق كما عبر عن ذلك رائد الفلسفة الحديثة من البسيط إلى المعقد أي أصل غير قابل لأي حلّ، ولا نقدا بالمعنى الكانطي الذي يعني الحكم واختيار القرار، فهو كذلك ليس منهجا أو طريقة لأنه لا يختزل إلى مجموعة من الأدوات والقواعد المنهجية والإجراءات القابلة والخاضعة للنقل.⁴

¹ - نفس المقال، ص 31.

² - جاك دريدا، الإختلاف والكتابة، ترجمة كاظم جهاد، تقديم محمد علال سينا، دار البيضاء: دار التوقال للنشر ط 1، 1988، ص 58.

³ - نفس المصدر، ص 59.

⁴ - نفس المصدر، ص ص 60-61.

يبدو أنّ المطلب الولوج إلى تحديد مفهوم دقيق لهذه المفردة (التفكيك) معقدا جدا نظرا إلى إنتمائها إلى تلك الإستراتيجية الفلسفية المعاصرة التي تخضع جميع المفهومات، الدلالات المعجمية، التمهصلات النحوية إلى فعل التفكيك نفسه، وتبعا لذلك فإنّ الحصول على مفهوم دقيق ضمن هذه الخطابات (النحو علم الدلالات وغيرها) يبقى صعبا للغاية، لأنّها قابلة للتفكيك بوصفه إستراتيجيا متحركة تتجاوز كل المنظومات المغلقة.¹

يهدف دريدا من خلال التفكيكية إلى تفكيك الأسس والثوابت الميتافيزيقية المطلقة التي لا تبتغي إلاّ الزلي، الثابت والحقائق المفارقة والمتعالية عن عالم الوجود الحسي، لكن هذا لا يعني أن فعل التفكيك يرتبط بقوة الهدم أو التخريب الجذري لمفاهيم أو صفات سلبية للفكر الميتافيزيقي، بل هو طريقة نقد وتفكير تريد إعادة إصلاح الفكر نفسه وإعادة إنتاجه بصفة مغايرة، ومن هذا المنطلق نستطيع الإقرار بأنّ التفكيك يمثل تلك الطريقة التي تساعد الفيلسوف المعاصر على كشف الأسئلة المخفية خلف الحقائق التي يحتويها نمط فكري معين، فهي تعد تلك الأداة النقدية المعاصرة المعتمدة لغاية تحديد وتفكيك المفاهيم التي ظلت محافظة على مجموعة من البديهيات التي لا يمكن خلخلتها.²

الخاتمة:

ينتمي فعل النقد إلى المشروع الفلسفي الحديث الذي أعلى من شأن الإنسان إثر إكتشاف الذات بوصفها ذات حرة تأملية قادرة على فعل التفكير العقلاني الذي ساعد الإنسان الحر على الانفلات من رقبة الماضي وسلطة التفكير الوثوقي، وإثر اشتغالنا على مكانة النقد في الفلسفة الحديثة توصلنا إلى إثبات وجود أربعة مكاسب لفعل النقدي الذي يعتبر من السمات الجوهرية للفكر الذاتي الممتلئ بمفهوم الراهنية وهذه المميزات تتجسد في مايلي: استقلال الإنسان وتحرره من جميع أشكال الإستعباد والهيمنة، إكتساب مجموعة من الحريات الأساسية مثل حرية الفعل وإبداء الرأي، وحرية المعتقد، تأسيس مفهوم الفردانية (individualisme) وهو مفهوم يشير إلى أنّ الإنسان بصفته ذات حرة و مستقلة قادرة أن تمنح قيمة للأفعال والأشياء، وأخيرا نجد أنّ المشروع النقدي هو مشروع تنويري أسهم في تحرير الإنسان من أشكال القصور سوى أكانت معرفية، سياسية ودينية وخلقية، لكن من زاوية أخرى شهد مفهوم النقد الحديث مسائلة فلسفية معاصرة ابتدأت مع فيلسوف المطرقة

¹ - جاك دريدا، الإختلاف والكتابة، ترجمة كاظم جهاد، تقديم محمد علال سينا، دار البيضاء: دار التوقال للنشر ط 1، 1988، ص 62.

² - مراد الخطيبي، فلسفة التفكيك كما تصورها جاك دريدا، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، سبتمبر 2022، ص 2.

وتواصلت مع مجموعة من الفلاسفة المتأثرين بالنقد النييتشوي ونذكر من أهمهم فوكو ودريدا، وهذه المحاولات الفلسفية الجريئة التي مكنتنا من إبراز ومعرفة مكبوتات العقل الحديث الذي لم يستطع مسألة نفسه مسألة جذرية تساعده على كشف أقنعة وأوهام والمضمرات الخفية، لذلك تتجلى مهمة النقد في الفكر الفلسفي المعاصر في زعزعة الخطابات التي تقدم حقائق مغلقة وكلية، وخلخلة صروحها الميتافيزيقية لإستنطاق معالمها الصامتة.



المصادر والمراجع

المراجع العربية

1. أبو النور حمدي- أبو النور حسن، هابرماس الأخلاق والتواصل، بيروت: دار التنوير، 2009.
2. الجوة محمد، مسائل فلسفية، تونس: مركز النشر الجامعي، في 2000.
3. الخوني محسن، التنوير والنقد منزلة كانط في مدرسة فرانكفورت: دار الحوار للنشر والتوزيع، 2006.
4. الزواوي بغورة، ميشيل فوكو في الفكر العربي المعاصر، محمد الجابري_ محمد أركون_ فتحي التركي_ مطاع صفدي، بيروت: دار الطليعة، 2001.
5. الشابي نور الدين، نيتشه ونقد الحداثة، القيروان: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، دار المعرفة للنشر، 2005.
6. الشامخ فاطمة الحداد، الفلسفة النسقية ونسق الفلسفة السياسية عند سبينوزا، ترجمة جلال سعيد، تونس: المركز الوطني للترجمة، 2008.
7. دريدا جاك، الاختلاف والكتابة، ترجمة كاظم جهاد، تقديم محمد علال سينا، الدار البيضاء: دار التوقال للنشر ط1، 1988.
8. دولوز جيل، نيتشه والفلسفة، ترجمة أسامة الحاج، بيروت: المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، 1993.
9. ديكارت ريناي، حديث الطريقة، ترجمة وشرحه وقدم له عمر الشارني، تونس: دار المعرفة للنشر 1987.
10. سبينوزا باروخ، رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة وتقديم حسن حنفي، مراجعة فؤاد زكرياء، بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 2005.

11. فوكو ميشال، حفريات المعرفة، ترجمة سالم يافوت، بيروت: المركز الثقافي العربي، 1987.
12. فوكو ميشيل، جنيالوجيا المعرفة، ترجمة أحمد السطاتي وعبد السلام بنعبد العالي، ط1، الدار البيضاء، دار التوقال للنشر 1994.
13. كانط إمانويل، أسس ميتافزيقا الأخلاق، ترجمة موسى وهبة، بيروت: دار النهضة العربية، 1969.
14. كانط إمانويل، نقد العقل المحض، ترجمة موسى وهبة، بيروت: مركز الإنماء القومي، 1989.
15. كانط إمانويل، تأملات في التربية، ماهي الأنوار؟ ماالتوجه في التفكير؟، ترجمة محمود بن جماعة، صفاقس: دار محمد علي الحامي، 2005.
16. نيتشه فريدريتش، ماوراء الخير والشر، ترجمة فالور جزلا حجار، بيروت: دار الفرابي، 2003.
17. نيتشه فريدريتش، جنيالوجيا الأخلاق ترجمة فتحي المسكيني ومراجعة محمد محجوب، تونس: المركز الوطني للترجمة، 2010.

المصادر باللغة الفرنسية:

1. De caninck,. De l'analytique transcendante chez kant, paris : Béatrice Nauwelaerts, 1955.
2. Parrochia Daniel ,La raison systématique ,Paris :Vrin ,1993
3. Vattimo Gianni niestzche et la philosophie comme un excercice anthologique ,Royaumant _Minuit ,1967

قائمة المعاجم والموسوعات

1. لالند أندريه، موسوعة لالند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، بيروت: عويدات، مجلد 1، 1966.

أهم المقالات الفلسفية الورقية والإلكترونية.

1. أحمد شرين، تعريف النقد، موقع موضوع.
2. الحيدري إبراهيم، ماهي الحداثة، موقع إيلاف، يونيو، 2003.
3. الخطيبي مراد، فلسفة التفكير كما يتصورها جاك دريدا، مؤسسة مؤمنون بلا حدود سبتمبر، 2022
4. الموصدق حسن، المعرفة ومعرفة البيولوجيا السياسية بين سلطة السلطة مفهوم الحقيقة عند فوكو، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد 144-145 بيروت: مركز الإنماء القومي، 2008.
5. عبد الحق منصف، نقد الاستبداد في العقل السياسي الحديث، مجلى الفكر العربي المعاصر، بيروت: مركز الإنماء القومي، 2008.
6. عفان خليفة، ماذا أضاف كانط للفلسفة الحديثة، موقع الجزيرة نات، 2019/1/11